على الرغم من أنّ رأس المال يُصَنَّف في العادة على أنّه عملٌ في الاقتصاد، إلاّ أنّ كارل ماركس لم يلتفت إلى دراسة الاقتصاد السياسي إلاّ بعد سنوات كثيرة من الكَدْح في مجاليّ الفلسفة والأدب. وهذان الأساسان الفكريان هما ما شكّل دعامة المشروع. أمّا تجربة الاغتراب التي خاضها ماركس شخصياً فهي التي أضفت القوة على تحليل نظامٍ اقتصادي يغرّب البشر عن بعضهم بعضاً وعن العالم الذي يقطنونه، ذلك العالم الذي تستعبدهم فيه قوة رهيبة هي قوة رؤوس الأموال والسلع الفاقدة للحياة.

كان ماركس نفسه شخصاً خارجياً منذ لحظة ولادته، في 5 أيار 1818، صبياً يهودياً في مدينة تريز التي يغلب عليها الطابع الكاثوليكي ضمن دولةٍ بروسيةٍ كانت ديانتها الرسمية هي

البروتستانتية الإنجيلية. وعلى الرغم من أنّ أرض الراين كانت قد ضُمَّت إلى فرنسا خلال الحروب النابوليونية، إلاّ أنها عادت لتُدْمَج في بروسيا الإمبراطورية قبل ثلاث سنوات من ولادة ماركس، وبذلك بات اليهود في ترير خاضعين لمرسومٍ يحرّم عليهم ممارسة المهن الاختصاصية: فكان على والد كارل، هنريش ماركس، أن يتحوّل إلى اللوثرية كيما يُتاح له العمل كمحامٍ. ولا عجب أنَّ كارل ماركس الشاب راح يطيل التفكّر في مسألة الاغتراب. وقد كتب في مقالةٍ مدرسية في السابعة عشرة من عمره: "لا يسعنا على الدوام أن نتّخذ المهنة التي نحسب أنها تناسبنا. فعلاقاتنا في المجتمع تبدأ بالتبلور إلى هذا الحدّ أو ذاك قبل أن نحتلّ ذلك الموقع الذي يتيح لنا أن نحدّد هذه العلاقات".

ولقد شجّع والد ماركس ابنه على أن يقرأ بنهم. وكانت سنوات الضمّ قد رسّخت لدى هنريش ميلاً إلى النكهات الفرنسية في السياسة، والدين، والحياة، والفن، وقد وصفته إحدى حفيداته بأنّه ""فرنسي" حقيقي من القرن الثامن عشر يعرف عن ظهر قلب كلاً من فولتير وروسّو الخاصّين به". أمّا الناصح المخلص الآخر لماركس على الصعيد الفكري فكان صديق والده البارون لودفيغ فون ويستفالن، الموظّف الحكومي المثقف والليبرالي الذي عرّف ماركس على الشعر والموسيقى (وعلى ابنته جيني فون ويستفالن، زوجة ماركس المقبلة). ففي نزهاتهما الطويلة معاً كان البارون يتلو مقاطع

من هوميروس وشكسبير، لا يلبث رفيقه الشاب أن يحفظها عن ظهر قلب، ليستخدمها لاحقاً كتوابل أساسية في كتاباته. كما راح ماركس في حياته الراشدة يعيد أداء تلك النزهات السعيدة مع فون ويستفالن عبر إلقائه مشاهد من شكسبير ودانتي وغوته بينما يقود عائلته باتجاه هامستد هيث في نزهات أيام الأحد. وكما كتب البروفسور س. س. براوِر، فإنَّ جميع أفراد أسرة ماركس كانوا مضطرين لأن يعيشوا في "هبّات دائمة من الإلماع إلى الأدب الإنجليزي". فكان ثمة مقبوس يمكن إيراده لكلّ مناسبة: لدكّ معاقل خصم سياسي، أو بثّ الحياة في تجريدٍ فاقدٍ للحياة، كما يحصل حين يتكلم رأس المال ذاته بلسان شايلوك (في المجلد الأول من رأس المال) كيما يبرّر استغلال عمل الأطفال في المصانع.

احتجّ العمال ومفتّشو المصانع، لاعتبارات صحّية وأخلاقية، لكن رأس المال أجابهم:

فليقع وِزر أفعالي على أمّ رأسي! القانون مبتغاي،

الجزاء والرهن تبع للعقد.

ولكي يثبت ماركس أنّ النقد هو ذلك المساواتيّ الراديكاليّ الذي يمحو جميع الفروق، فإنّه يورد خطبةً من **تيمون الأثيني** عن الذهب بوصفه "عاهرة مبذولة للجميع"، تتلوها خطبة من **أنتيغون** لسوفوكليس ("المال! المال أسوأ ما اخترعه الإنسان!/ ذلك ما يخرّب

المدن، ويطرد البشر من بيوتهم، /ويفسد الأنفس النبيلة ويغويها/ إلى طريق العار والشنار..."). أمّا الاقتصاديون بما لديهم من نماذج ومقولات فات زمانها فيشبّههم بدون كيخوته، الذي "دفع ثمن تصوّره الخاطئ أنَّ الفروسية الجوّالة تتلاءم بالقدر ذاته مع جميع أشكال المجتمع الاقتصادية".

كانت مطامح ماركس الباكرة مطامح أدبية. وقد كتب -وهو لايزال طالباً يدرس القانون في جامعة برلين- ديواناً من الشعر، ومسرحية شعرية، بل ورواية، عنوانها "سكوربيون وفيليكس"، أنجزها على عجلٍ في نوبةِ مراقٍ عارضٍ وثَمَلٍ مفتونٍ برواية لورنس ستيرن تريسترام شاندي. لكنه أقرّ بالهزيمة بعد هذه التجارب: "فجأةً، كأنما بلمسةٍ سحريةٍ - بل كانت اللمسة في البداية ضَرْبَةً ساحقةً- وقع بصري على عالم الشعر الحقيقي النائي مثل أرض الجنّ النائية، وتقوّضت إبداعاتي جميعاً وتلاشت... أُسْدِلَت ستارةٌ، وتمزّق قدس أقداسي إرباً، وكان لا بدّ من تنصيب آلهة جديدة". وعانى ماركس نوعاً من الانهيار، وأَمَرَهُ طبيبه بأن يلجأ إلى الريف في استراحةٍ طويلة، استسلم خلالها أخيراً لصوت غ. و. ف. هيغل المُغْوي، أستاذ الفلسفة في برلين الذي توفّي مؤخّراً، والذي كان إرثه موضع خلاف شديد بين التلاميذ من أقران ماركس والمحاضرين. ففي فتوّته كان هيغل نصيراً مثالياً للثورة الفرنسية، لكنه غدا في أواسط عمره مرتاحاً وليّن الجانب، وصار يرى أنّ

الشخص الناضج حقّاً ينبغي أن يدرك "الضرورة الموضوعية ومعقولية العالم كما يجدها عليه". فعنده، أنَّ "كلَّ ما هو واقعيّ عقلاني"، وبما أنّ الدولة البروسية كانت واقعية دون شكّ، بمعنى أنها موجودة، فقد رأى أنصاره المحافظون أنها لا بدّ إذاً أن تكون عقلانيةً لا يرقى إليها اللوم. أما أولئك الذين كانوا يؤيدون أعماله الباكرة الهدّامة - الهيغليون الشباب- فكانوا يفضّلون الاستشهاد بالنصف الثاني من ذلك القول الشهير: "كلّ ما هو عقلاني واقعي". وكان من الواضح أنَّ الملكية المطلقة المدعومة بالرقباء والشرطة السرية ليست عقلانية وليست واقعية تالياً، مجرّد سراب لا يلبث أن يختفي ما إنْ يجرؤ أحدٌ ما على لمسه.

وفي الجامعة، اعتاد ماركس "أن يأخذ مقتطفات من جميع الكتب التي يقرؤها"، وهي عادة لازمته طوال حياته. وتبيّن قائمة قراءاته في هذه المرحلة مدى النضج المبكر الذي اتّسمت به استكشافاته الفكرية. فبينما كان يكتب بحثاً في فلسفة القانون أجرى دراسةً مفصّلةً لكتاب فينكلمان **تاريخ الفنّ**، وراح يعلّم نفسه الإنجليزية والإيطالية، وترجم كتاب تاسيتوس **جرمانيا** وكتاب أرسطو **الخطابة**، وقرأ فرانسيس بيكون وأمضى "قدراً كبيراً من الوقت مع ريماروس، الذي انكببتُ باستمتاعٍ على كتابه حول الغرائز الفنية لدى الحيوانات". وهذا الأسلوب في البحث هو ذات الأسلوب الانتقائي كليّ المعرفة، الذي غالباً ما ينحرف عن مساره، والذي

أعطى **رأس المال** ما يتّسم به من اتساع المرجعية. ويبدو وصف ماركس لديمقريطس في أطروحته للدكتوراه، "الفارق بين فلسفة ديمقريطس وفلسفة أبيقور "أشبه بلوحةٍ ذاتيةٍ لافتة"، يصفه شيشرون بأنّه متبحّر تماماً. فهو كفؤ في الفيزياء، والأخلاق، والرياضيات، في الفروع الموسوعية، وفي كلّ فن".

وبدا ماركس، لفترةٍ، غير واثق من كيفية استخدام كلّ ذلك التبحّر على أفضل وجه. فبعد حصوله على الدكتوراة فكّر في أن يصبح مُحاضِراً في الفلسفة، ثمّ قرّ قراره على أنّ القرب اليومي من الأساتذة أمْرٌ لا يُطاق. "من الذي يريد أن يتكلّم طوال الوقت مع سَفَلَة مثقفين، مع أناس لا يدرسون إلا لكي يجدوا مآزق جديدة في كلّ زاوية من زوايا الدنيا!". وعلاوةً على ذلك، كانت أفكار ماركس قد تحوّلت منذ مغادرته الجامعة من المثالية إلى المادية، من المجرّد إلى الفعليّ. وقد كتب في العام 1842: "لما كانت كلّ فلسفة حقّة هي الخلاصة الفكرية لعصرها، فلا بدّ أن يأتي عصر ترتبط فيه الفلسفة وتتفاعل مع عالم زمنها، ليس داخلياً وحسب من حيث محتواها، بل خارجياً أيضاً من حيث شكلها". في ربيع ذلك العام بدأ ماركس يكتب لصحيفة ليبرالية جديدة في كولون، هي Rheinische Zeitung (الجريدة الرينانية)؛ ولم تمضِ ستة أشهر حتى عُيِّن محرّراً فيها.

وتتّسم كتابة ماركس الصحفية بقتاليةٍ متهوّرة تفسّر قضاءه معظم حياته الراشدة في المنفى وفي عزلة سياسية. فأول مقالة

كتبها في الجريدة الرينانية كانت هجوماً جارحاً على ما اتّسم به الحكم البروسي المطلق من انعدامٍ للتسامح وما اتّسم به خصومه الليبراليون من بلاهةٍ وحُمق. ولم يكتفِ بما أَوْجَدَهُ من أعداء في الحكومة والمعارضة على حدٍّ سواء، فانقلب على رفاقه أيضاً، واتّهم الهيغليين الشباب بأنهم "أفظاظ وأوغاد". ولم يمضِ شهران على تولّيه مسؤولية تحرير الجريدة، حتى طلب حاكم الإقليم من وزير الرقابة في برلين أن يقاضيه على "نقده الوقح الصفيق". بل إن القيصر الروسي نيكولا شخصياً رجا ملك بروسيا أن يوقف الجريدة الرينانية التي أثارت سخطه بنقدها الساخر والعنيف لروسيا. وفي آذار من العام 1843 أُغْلِقَت الجريدة في الوقت المناسب: ففي الرابعة والعشرين من عمره، كان ماركس قد امتلك قلماً قادراً على ترويع رؤوس أوربا المتوَّجة وإثارة غيظها. وإذْ أدرك أنَّ لا مستقبل له في بروسيا، قَبِلَ دعوةً للانتقال إلى باريس كمحرّر مساعدٍ لمجلةٍ كان يصدرها بعض الألمان في المنفى، هي Deutsche-Franzosische Jahrbücher (الحوليات الألمانية-الفرنسية). ولم يضع ماركس سوى شرط واحد: "لقد خطبتُ لكي أتزوّج ولا أستطيع أن أغادر ألمانيا، ولا ينبغي أن أغادرها ولن أغادرها، إلاّ ومعي خطيبتي".

تزوج كارل ماركس من جيني فون ويستفالن في حزيران 1843. وفي بقية الصيف، بينما كانا ينتظران استدعاءهما إلى باريس،

تمتّع وعروسه الجديدة بشهر عسلٍ ممتدّ في منتجع كروزناخ للمياه المعدنية. وحين لم يكن يتمشّى على ضفة النهر كان يغلق على نفسه في غرفة عمل، يقرأ ويكتب على نحوٍ كثيف ومحموم. ولطالما راق لماركس أن يدوّن أفكاره على الورق، وثمّة صفحة باقية من الملاحظات التي دوّنها في كروزناخ تبيّن كيف كانت تجري هذه العملية:

ملحوظة. في ظلّ لويس الثامن عشر، الدستور نعمة من الملك (شرعة مفروضة من الملك)؛ وفي ظلّ لوي فيليب، الملك نعمة من الدستور (ملكية مفروضة). ويمكن أن نلاحظ عموماً أنّ تحوّل المُسْنَد إليه إلى مُسْنَد، وتحوّل المُسْنَد إلى مُسْنَد إليه، واستبدال المحدَّد بالمحدِّد هو على الدوام الثورة الأقرب... الملك يصنع القانون (الملكية القديمة)، القانون يصنع الملك (الملكية الجديدة).

هذا القَلْب النحوي البسيط كان يكشف أيضاً عن نقيصةٍ في الفلسفة الألمانية. فقد زعم هيغل أنَّ "فكرة الدولة" هي الفاعل، والمجتمع هو المفعول لهذا الفاعل، في حين يظهر التاريخ أنَّ العكس هو الصحيح. يكفي إذاً أن نقلب هيغل رأساً على عقب لكي تُحَلّ المشكلة: لا يصنع الدّينُ الإنسان، الإنسانُ يصنعُ الدِّينَ؛ لا يُوجِد الدستورُ الشعبَ، بل الشعبُ يُوجِد الدستور. ومع أنَّ ماركس أخذ

هذه الفكرة عن لودفيغ فيورباخ، الذي رأى في كتابٍ له أنّ "الفكر ينشـــأ من الكينونة، ولا تنشـــأ الكينونة من الفكر"، إلاّ أنه وسّع منطقها من الفلسفة المجرّدة إلى العالم المادي. فكما كتب في **أطروحات حول فيورباخ**، التي نُشِرَت عام 1845: "لقد اكتفى الفلاسفة **بتفسير** العالم، بشتّى الطرق؛ المهم هو **تغييره**". وهذه هي الأطروحة الأساسية في **رأس المال**، مع أنها الآن لا تزال جنيناً في الرحم. فمهما تكن الانتصارات الاقتصادية الجليّة التي حقّقتها الرأسمالية مجيدةً وعظيمةً، إلاّ أنّ الرأسمالية تبقى كارثةً لأنّها تحوّل البشر إلى سِلَعٍ، تمكن مبادلتها بسواها من السلع. وإلى أن يتمكّن البشر من تحقيق أنفسهم بوصفهم ذوات التاريخ وليس موضوعاته، لا يمكن أن يكون ثمّة مفرّ من هذا الطغيان.

في خريف العام 1843، وصل إلى باريس الثالوث المشرف على **الحوليات الألمانية - الفرنسية** - كارل ماركس، والصحفي أرنولد روغه، والشاعر جورج هيرويغ - وأنشأوا "تعاونيةً اشتراكيةً" أو كومونة في رو فانو، مستلهمين الأفكار اليوتوبية التي عرضها الاشتراكي الفرنسي شارل فورييه. لكن تجربة العيش المشترك كانت قصيرة الأجل، وكذلك تجربة المجلة ذاتها: فلم يصدر منها سوى عدد واحد حتى دبَّ الخلاف بين المحرّرين وتفرّقوا، وتلقّى ماركس بعدئذٍ عرضاً للكتابة في Vorwarts (إلى الأمام)، وهي صحيفة شيوعية يصدرها منفيون ألمان مرتين في الأسبوع، وقد

عبّر فيها ماركس لأول مرة عن قناعته بأنّ الوعي الطبقي هو سماد الثورة. كما كتب ماركس في تلك الصحيفة: "إنَّ البروليتاريا الألمانية هي منظّر البروليتاريا الأوروبية، كما أنّ البروليتاريا الإنجليزية هي اقتصاديّها، والبروليتاريا الفرنسية سياسيُّها"، وكان بذلك يستبق تقويم إنجلز للماركسية ذاتها بأنها مركّب هجين يشتمل على خطوط النسب الثلاثة هذه. وكان قد سبق لماركس أن تضلّع من الفلسفة الألمانية والسياسة الفرنسية، فانكبّ الآن على تثقيف نفسه بالاقتصاد الإنجليزي، شاقّاً طريقه على نحوٍ منهجي عبر أعمال آدم سميث، وديفيد ريكاردو، وجيمس مِلّ، مُخَرْبِشاً تعليقاته المتدفّقة كلما مضى قُدُماً. وكانت هذه الملاحظات، التي اشتُهِرَت باسم مخطوطات باريس، نوعاً من المسوّدة الباكرة الخام لما سيغدو في النهاية **رأس المال**.

تبدأ المخطوطة الأولى بهذا التأكيد المباشر: "تتحدّد الأجور من خلال الصراع الضاري بين الرأسمالي والعامل. والرأسمالي يربح حتماً. فالرأسمالي يمكنه أن يعيش من دون العامل أطول مما يمكن للعامل أن يعيش من دونه". وإذا لم يكن رأس المال سوى ثمار عمل العامل المتراكمة، فإنّ رساميل بلدٍ ما ومداخيله لا تتنامى إلاّ حين "يُؤخَذ من العامل المزيد والمزيد من منتجاته، وحين يواجهه عملهُ على نحوٍ متزايدٍ كملكية غريبة، وتتركّز وسائل وجوده ونشاطه على نحوٍ متزايدٍ في يديّ الرأسمالي". ومصير العامل، حتى في أفضل

الشروط الاقتصادية، هو حتماً "المشقّة والموت الباكر، واختزاله إلى آلة، وعبوديّته لرأس المال". أمّا عمله فيغدو كينونةً خارجية "توجد خارجه، منفصلةً وغريبة عنه، وتأخذ بمواجهته كقوة مستقلة؛ ذلك أنّ الحياة التي وهبها للموضوع تواجهه كقوة معادية وغريبة". ويستمدّ ماركس هذه الصورة من واحدٍ من أحبّ الكتب إليه، وهو **فرانكنشتين**، حكاية المسخ الذي ينقلب على خالقه. ومع أنّ بعض الباحثين يرون أنّ هنالك "قطيعة جذرية" بين فكر ماركس الشاب وماركس الناضج، إلاّ أنَّ كلاً من التحليل وأسلوب التعبير الغوليّ الذي يتّخذه هذا التحليل هما من عَمَل الرجل ذاته الذي رأى في رأس المال، بعد أكثر من عشرين سنة، أنَّ الوسائل التي ترفع الرأسماليةُ الإنتاجيةَ من خلالها "تشوّه الإنسان وتحوّله إلى كِسْرَة إنسان، وتنحطّ به إلى مستوى آلةٍ، وتدمّر المحتوى الفعليّ لعمله بتحويله إلى تعذيب؛ وتستلب منه الطاقات الفكرية لعملية العمل... وتحوّل عمره إلى زمن من العمل، وتسحق زوجته وطفله بقوة رأس المال الماحقة".

وفي آب 1844، بينما كانت جيني ماركس تزور أمّها في ترير، جاء فريدريك إنجلز البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً ليعرّج على كارل في شقّته الباريسية. وكان قد سبق لهما أن التقيا مرّة على نحوٍ سريع، في مكتب **الجريدة الرينانية**، كما أُعْجِبَ ماركس مؤخّراً أيّما إعجاب بمقالة إنجلز "نقد الاقتصاد السياسي" التي

قدّمها إلى **الحوليات الألمانية-الفرنسية**. ويمكن أن نرى سبب ذلك: فعلى الرغم من أنّه بات مقتنعاً الآن بأنَّ القوى الاجتماعية والاقتصادية هي التي تدفع عجلة التاريخ، إلاّ أنّه لم يكن لديه أيّ معرفة مباشرة بالرأسمالية في الممارسة. وكان إنجلز مؤهّلاً لأن ينوّره على هذا الصعيد، فهو ابنُ ووريثُ ألمانيٍّ يعمل في صناعة القطن ويملك محالج في مانشستر: قلب **الثورة الصناعية** ومسقط رأس **الرابطة المناهضة لقانون الحبوب**، مدينةٌ تعجُّ بالشارتيين، والأوينيين، والمحرّضين الاشتراكيين من كلّ صنف. وكان إنجلز قد انتقل إلى لانكشاير في خريف العام 1842، في الظاهر لكي يتمرّس في أعمال الأسرة وفي الحقيقة لأنّه كان يريد أن يرصد العواقب الإنسانية التي ترتّبت على الرأسمالية الفيكتورية. وفي النهار كان ذلك المدير الشاب المجتهد في **بورصة القطن**؛ وبعد ساعات كان يبدّل المواقع، فيمضي مستكشفاً شوارع البروليتاريا وأحياءها المكتظّة لكي يجمع مادة رائعته الباكرة، **حالُ الطبقة العاملة في إنجلترا** (1845).

ومع أنّ ماركس وإنجلز أمضيا معاً عشرة أيام في باريس، فإنّ الرواية الوحيدة عن حوارهما الملحمي لا تَرِدُ إلا في جملة واحدة كتبها إنجلز بعد أكثر من أربعين عاماً: "حين زرتُ ماركس في باريس صيف العام 1844، بات اتّفاقنا الكامل في جميع الميادين النظرية واضحاً وعملنا المشترك يعود في التاريخ إلى تلك الفترة".

ولقد تمّمَ كلٌّ منهما الآخر على النحو الأكمل: ماركس بما لديه من ثراء المعرفة، وإنجلز بما لديه من معرفةٍ بالثروة. وكان ماركس يكتب ببطء ومشقّة، مع حذوفاتٍ وتنقيحات بقلم الحبر لا يحصرها العدّ، أمّا مخطوطات إنجلز فكانت مرتّبة، ومنظّمة، وأنيقة. ولقد عاش ماركس معظم حياته في حالٍ من الفوضى والفقر المدْقع؛ في حين حظيَ إنجلز بوظيفةٍ بدوامٍ كامل في الوقت الذي كتب أيضاً عدداً هائلاً من الكتب، والرسائل، والمقالات الصحفية، وظلّ يجد الوقت للتمتّع بلذائذ الحياة البرجوازية الراقية، حيث الجياد في إسطبلاته والكثير من الشراب في أقبيته. غير أنّ إنجلز، على الرغم من امتيازاته الواضحة، أدرك منذ البداية أنه لن يكون قطّ ذلك الشريك المسيطر. وقَبِلَ، دون تذمّر أو غيرة، أن تكون مهمته تقديم العون الفكري والمادي الذي جعل عمل ماركس ممكناً. وقد كتب: "لا يسعني أن أفهم كيف يمكن لأحد أن يحسد العبقرية؛ فهي شيء بالغ الخصوصية لدرجة أننا نعلم منذ البداية -نحن الذين لا نمتلكها- أنّ من المتعذّر إحرازها؛ أمّا من يحسد شيئاً كهذا فلا بدّ أن يكون ضيّق التفكير إلى حدٍّ مخيف".

لم يكن لديهما أيّ أسرار، أو محظورات، يخفيها أحدهما عن الآخر: ومراسلاتهما خليط لاذع من التاريخ والثرثرة، من الاقتصاد المُلْغَز والنكات الصبيانية. كما عمل إنجلز أيضاً كنوعٍ من الأمّ البديلة بالنسبة لماركس: يرسل إليه مصروف جيبه، ويقلق على

صحّته ولا يني يحذّره لئلاّ يهمل دراساته. وفي أوّل رسالة باقية بينهما، تعود إلى تشرين الأول 1844، يلحّ إنجلز على ماركس لكي يحوّل ملاحظاته السياسية والاقتصادية إلى كتاب دون إبطاء: "فلتُعْنَ بأمر إخراج المادة التي جَمَعْتَها إلى العالم فوراً. لعلّ هذا الوقت هو الوقت المناسب قبل فوات الأوان!" وبعد أشهرٍ ثلاثة زاد نفاد صبره: "حاول أن تنهي كتابك في الاقتصاد السياسي، حتى لو كان فيه الكثير مما لا ترضى عنه أنت نفسك، فذلك ليس مهمّاً في الحقيقة؛ فالعقول يانعة وعلينا أن نضرب الحديد وهو حامٍ... حاولْ إذاً أن تنهيه **قبل** نيسان، افعل كما أفعل، حدّد لنفسك موعداً واحرص أن يذهب إلى المطبعة بسرعة". ويا لتلك المهمة اليائسة: فسوف يمرّ أكثر من عقدين قبل أن يُسَلَّم المجلّد الأول من **رأس المال** إلى المطبعة أخيراً.

وليس إنجلز نفسه بالبريء هنا كلّ البراءة. فما إنْ التقى ماركس في باريس حتى اقترح عليه أن يتعاونا في وضع كرّاس صغير - من أربعين صفحةٍ كحدٍّ أقصى- ينتقدان فيه الهيغليين الشباب الأشدّ هياجاً. وإذْ أنهى إنجلز في بضعة أيام ذلك الجزء الخاص به والذي يقع في عشرين صفحة، "لم يدهشه" أن يعلم بعد عدّة شهور أنّ الكرّاس قد انتفخ حتى بات في 300 صفحة. فماركس كان كاتباً من النوع الذي لا يمكنه أن يقاوم ما يلهيه ويصرف اهتمامه، فيفضّل الرضا المباشر الذي توفّره الكرّاسات

والمقالات على الكَدْح الصامت المغمور الذي كانت تقتضيه رائعته، التي حملت آنئذٍ عنواناً مؤقّتاً هو **نقد الاقتصاد والسياسة**. وعلى الرغم من وعده بأن يسلّم الناشر الألماني كارل لِسكه المخطوطة الاقتصادية في صيف العام 1845، إلاّ أنّه وضعها جانباً دون أن يكتب أيّ شيء سوى جدول محتوياتها. وقد فسّر ذلك لِسكه، قائلاً: "بدا لي من المهمّ كثيراً أن أستبق تطوّري **الإيجابي** بقطعةٍ جدالية ضد الفلسفة الألمانية والاشتراكية الألمانية حتى وقتنا الراهن. فهذا ضروري لتهيئة الجمهور لوجهة النظر التي أتّخذها في **اقتصادي**. والتي تتعارض تماماً مع المعارف الألمانية ماضياً وحاضراً... إذا كان ثمّة حاجة، يمكنني أن أُخرج عدداً كبيراً من الرسائل التي وصلتني من ألمانيا وفرنسا كبرهان على أنّ الجمهور ينتظر هذا العمل على أحرّ من الجمر". قصةٌ قابلةٌ للتصديق: فالكتاب المعنيّ، **الإيديولوجيا الألمانية**، لم يجد ناشراً قبل العام 1932. وقد كتب ماركس: "لقد تركنا المخطوطة بكامل إرادتنا لنقد الفئران القارض بعد أن حقّقنا غَرضَنا الأساسي، وهو إيضاح الأمور لأنفسنا".

بيد أنّه ظلّ عاجزاً أو راغباً عن إيلاء العمل الاقتصادي اهتمامه الكامل. فقد شهدت السنوات القليلة التالية كثيراً من الانقطاعات الجدالية" **بؤس الفلسفة**، وهو خطبة لاذعة في 100 صفحة يقرّع فيها بيير جوزيف برودون؛ **عظماء المنفى**، وهو أهجية

مطنبة لـ "أبرز حمير" الشتات الاشتراكي و"أوغاده الديمقراطيين"؛ **التاريخ الدبلوماسي السريّ للقرن الثامن عشر**، وهو خطبة عنيفة وطويلة ضدّ روسيا؛ **قصة حياة اللورد بالمرستون**، حيث يحاول أن يثبت أنّ وزير الخارجية البريطاني كان عميلاً للقيصر الروسي؛ **وهِر فوغت**، وهو هجوم كاسح على أستاذ للعلوم الطبيعية في جامعة بيرن، كان قد جلب على نفسه حنق ماركس إذْ وصفه بالدجّال والطفيليّ. "واحدة بواحدة، والانتقامات تجعل العالم يدور"، هكذا همهم لنفسه جذلاً وهو يبدّد أفضل جزء من السنة على عدائه مع فوغت.

كما أعاقت التقدّم مزيداً من الإعاقة تلك الاضطرابات الخاصة التي لا تنقطع. ففي كانون الثاني 1845 احتجَّ مبعوث بروسيا في باريس أمام الملك لوي فيليب على مقالةٍ في "**إلى الأمام**" يسخر فيها ماركس من الملك فريدريش ولهلم الرابع. وقام وزير الداخلية الفرنسي بإغلاق المجلّة في الحال وأمر بطرد كاتب المقالة من فرنسا. وكان الملك الوحيد المستعدّ لاستقباله في كلّ البرّ الأوروبي هو الملك ليوبولد الأول، ملك بلجيكا، ولم يكن ذلك إلا بعد أن تلقّى تعهّداً مكتوباً بأنّ ماركس لن ينشر "أيّ عمل عن السياسة الراهنة". ولأنَّ ماركس اعتبر أنّ هذا التعهّد لا يمنعه من **ممارسة** السياسة، فقد دعا إنجلز إلى الالتحاق به في بروكسل، حيث أسّسا **لجنة المراسلات الشيوعية** بغية الحفاظ على "تبادلٍ متواصلٍ

للرسائل" مع الجماعات الاشتراكية في أوروبا الغربية. وفي العام 1847 حوّلت هذه اللجنة نفسها إلى فرع من **عصبة الشيوعيين** المُشَكَّلة حديثاً في لندن، والتي دعت ماركس إلى صياغة إعلان مبادئها. وما قدّمه ماركس لهذه العصبة كان **بيان الحزب الشيوعي**، الذي قد يكون أوسع الكرّاسات قراءةً وأشدّها أثراً على مرّ التاريخ.

حين كتب ماركس البيان، في الأسابيع الأولى من عام 1848، كان يعتقد أنّ الرأسمالية البرجوازية قد أدّت غَرَضَها وسرعان ما ستُدْفَن تحت ركام تناقضاتها. فالصناعة الحديثة - بجرّها إلى المعامل والمصانع أولئك العمال الذين كانوا منعزلين - خلقت الشروط التي يمكن فيها للبروليتاريا أن تشكّل معاً تلك القوة التي لا تُقْهَر. "ما تنتجه البرجوازية، إذاً، وقبل كلّ شيء، هو حفّارو قبرها". غير أنّ ماركس - الذي كان يحسب أنّه يلقي خطبةً جنائزيةً - كان بمقدوره أن يكون كريماً مع خصمه المهزوم. وقد وصف أحد النقّاد البيان بأنه "احتفاء غنائي بأعمال البرجوازية"، ومن يقرأ هذا البيان لأول مرّة غالباً ما يُدهَش للمديح الذي يكيله ماركس لعدوّه دون حساب:

> **لقد لعبت البرجوازية، تاريخياً، دوراً ثورياً بالغاً. فحيثما كانت للبرجوازية اليد العليا، وضعت حداً للعلاقات الإقطاعية، البطريركية، الرعوية. فقد**

مزّقت إرباً وبلا هوادة تلك الأواصر الإقطاعية المتعددة التي كانت تقيّد الإنسان إلى "أسياده الطبيعيين"، ولم تبق على أيّ رابطة بين الإنسان والإنسان سوى المصلحة الذاتية العارية، و"الدفع نقداً" دون رحمة. وأغرقت في مياه الحسابات الأنانية الجليدية أقدس ما عرفته الحميّة الدينية، والحماسة الفروسية من ضروب الوجد. وحوّلت القيمة الشخصية إلى قيمة تبادلية... لا يمكن للبرجوازية أن توجد دون أن تثوِّر أدوات الإنتاج، وبذلك علاقات الإنتاج، ومعها كامل علاقات المجتمع.

وسوف يكرّر ماركس هذه الموضوعات في رأس المال مع مزيد من العمق والتعقيد، أمّا الآن فلم يكن ثمّة مجال لإحكامها. وما يثبته كلٌّ من الجملة الافتتاحية في البيان ("ثمّة شبح ينتاب أوروبا، هو شبح الشيوعية") وخاتمته المشهورة بالمثل ("فلترتعد الطبقات الحاكمة من الثورة الشيوعية... **يا عمال العالم اتّحدوا!**") هو أنّ هذا البيان كان قطعةً من الدعاية، وعلى الرغم من كونها قطعة تتميّز بذكاءٍ لا يُضاهى، إلا أنّها كُتِبَت بتعجّل في لحظةٍ بدا فيها العصيان المسلّح وشيكاً.

ومن محاسن الصّدف أنّ الثورة اندلعت بالفعل في ذلك الأسبوع من شهر شباط 1848 الذي شهد نشر **البيان**، في باريس

أولاً ثمّ بسرعة النار في الهشيم عبر كثير من أرجاء أوروبا القاريّة. وبعد تنازل الملك لوي فيليب عن العرش وإعلان **جمهورية فرنسية**، أمرت الحكومة البلجيكية التي أصابها الهلع كارل ماركس بمغادرة البلاد خلال أربعٍ وعشرين ساعة وبألاّ يعود إليها قطّ. ومن حسن الحظّ أنّه كان قد تلقّى للتوّ دعوةً من الحكومة المؤقتة في باريس: "ماركس الطيّب والمخلص... لقد نفاك الطغيان، وهاهي فرنسا الحرّة تفتح بواباتها لك ولجميع أولئك الذين يقاتلون من أجل القضية المقدّسة، قضية إخاء جميع الشعوب". غير أنّه لم يمرّ شهور على مكوث ماركس في باريس حتى غادرها إلى كولون على أمل نشر الثورة في ألمانيا. وكان سلاحه المُعْتَمَد، كالعادة، هو الكلمة المطبوعة: فقد أسّس جريدة يومية جديدة، هي Neue Rheinische Zeitung (الجريدة الرينانية الجديدة)، التي خضعت لمضايقات رسمية متواصلة طيلة حياتها القصيرة. وفي تموز مَثَلَ ماركس أمام القضاء بتهمة "السّبّ والقذف بحقّ النائب العام"؛ وفي أيلول، بعد إعلان الأحكام العرفية، أوقف حاكم كولون العسكري نشر الجريدة شهراً؛ وفي شباط التالي، حين تلاشت تماماً أيّ إمكانية للثورة، اتُّهِم ماركس "بالتحريض على التمرّد" لكنه أقنع هيئة المحكمة ببراءته بخطبةٍ ألمعية ألقاها من قفص الاتّهام. وأخيراً، في آذار 1849، قامت السلطات البروسية

بمحاكمة نصف هيئة التحرير ونصحت النصف الآخر -ومن بينهم ماركس، الذي جُرِّد من حق المواطنة- بأن يغادروا البلاد.

عاد ماركس إلى باريس في حزيران 1849، ليجد المدينة في قبضة الردّة الملكية ووباء الكوليرا. ولأنه زُوِّد بأمر رسميّ يقضي بإبعاده إلى منطقة موربيهان المبتلاة بالملاريا في بريتاني، لجأ إلى البلد الأوروبي الوحيد الذي كان لا يزال مستعدّاً لإيواء الثوريين الذين لا جذور لهم. فأبحَرَ إلى بريطانيا في 27 آب 1849 وبقيَ فيها حتى وفاته عام 1883. وقد كتب إلى إنجلز، الذي كان في زيارة إلى سويسرا: "عليك أن تغادر إلى لندن في الحال. وفي لندن سوف نغرق في العمل".

وبعد بضعة أشهر على وصوله إلى لندن، لاحظ كارل ماركس في واجهة متجر في شارع ريجينت وجود أنموذجٍ شغّال لمحرّكِ قطارٍ كهربائيّ. "فتدفّق حيويةً وإثارةً"، كما يقول شاهدٌ، ليس بسبب الإثارة التي تشيعها الجدّة بل بسبب ما كان ينطوي عليه ذلك من نتائج اقتصادية. فقد قال: "حُلَّت المشكلة: النتائج المترتّبة على ذلك لا تُحَدّ. وفي أعقاب الثورة الاقتصادية لا بدّ للثورة السياسية أن تأتي، لأنّ هذه الأخيرة ليست سوى التعبير عن الأولى". ولعلّ أحداً آخر في زحمة شارع ريجينت لم يتوقّف ليتأمّل العواقب الاقتصادية والسياسية التي ستترتّب على حصان طروادة الحديدي هذا؛ أمّا ماركس، فكان ذلك كلّ ما يهمّه.

ولأنّ ماركس حصل في حزيران 1850 على بطاقة تخوّله الدخول إلى قاعة المطالعة في **المتحف البريطاني**، فقد قضى شطراً كبيراً من السنة التالية في قراءة كتب الاقتصاد والأعداد القديمة من **الإيكونوميست**. وفي نيسان من العام 1851 أعلن قائلاً: "لقد حقّقتُ إلى الآن ذلك التقدّم الذي يتيح لي أن أنهي المادة الاقتصادية بكاملها في خمسة أسابيع. وهذا ما سيمكّنني من أن أُكمِلَ الاقتصاد السياسي في البيت وأتفرّغ لفرع معرفيّ آخر في **المتحف**". كان يجلس في قاعة المطالعة من التاسعة صباحاً حتى السابعة مساءً في معظم الأيام، غير أنّه لم تبد ثمّة نهاية لتلك المهمة التي ألقاها على عاتقه. وقد كتب في حزيران: "المادة التي أعمل عليها متشابكة ومعقّدة على نحوٍ لعين فلا يمكن لي، مهما بذلت من جهدٍ، أن أنتهي قبل ستة أسابيع أو ثمانية. وعلاوةً على هذا، فإنّ هنالك تلك الانقطاعات الدائمة من النوع العملي، والحتمية في الظروف البائسة التي نعيشها هنا...".

فمنذ لحظة وصولهما إلى لندن، راحت المصائب المنزلية تحلّ بكارل وجيني ماركس واحدةً بعد أخرى. فقد كان لديهما ثلاثة أطفال من قبل، والرابع وُلِدَ في تشرين الثاني 1849. وحين طُرِدوا من شقّة تشيلسيا في أيار 1850 لعدم تسديد الإيجار، وجدوا مأوى مؤقّتاً في منزل تاجر دانتيلا يهودي في دِنْ ستريت، في سوهو، حيث قضوا صيفاً بائساً يترنّحون على شفا العوز قبل أن ينتقلوا

إلى بيت أكثر استقراراً أعلى الطريق. وكانت جيني حاملاً من جديد، ومريضةً على الدوام. وكان إنجلز يأتي لإنقاذهم مضحياً بمطامحه الصحفية الخاصة في لندن ثم يعود إلى مكتب إرْمِن وإنجلز في مانشستر، حيث بقي على مدى العشرين عاماً التالية. ومع أنّ ذلك كان إلى حدٍّ بعيد بهدف تقديم الدعم لصديقه الألمعيّ المفلس، إلاّ أنّه عمل أيضاً كنوع من العميل خلف خطوط العدو، فكان يرسل لماركس تفصيلات موثوقة عن تجارة القطن وملاحظات خبيرٍ عن حالة الأسواق الدولية، إضافةً إلى مخصّصات منتظمة من الأوراق النقدية، كان يستلّها من صندوق المبالغ الصغيرة المخصّص للإنفاق على الأمور الثانوية أو يستلبها بالمكر والخداع من حساب الشركة المصرفي.

وعلى الرغم من هذه المعونات المالية، كان آل ماركس يعيشون في القذارة وأقرب إلى اليأس. فالأثاث في شقتهم المؤلّفة من غرفتين كان محطّماً، أو بالياً، أو ممزّقاً كلّه، مع طبقة من الغبار تعلو كلّ شيء. وكان البيت كلّه - الأب والأم، والأطفال، والمدبّرة- ينام في غرفة نوم خلفية صغيرة، في حين تُرِكَت الغرفة الأخرى كمكتب، وغرفة للّعب، ومطبخ. وقد كتب أحد جواسيس الشرطة البروسية إلى أسياده في برلين بعد أن نجح في دخول الشقّة أنّ ماركس "يعيش حياة مثقّف بوهيميّ حقيقي... وعلى الرغم من أنّه غالباً ما يتكاسل لأيام، فإنّه يعمل مواصلاً الليل بالنهار دون كلل أو

ملل عندما يكون لديه قدر كبير من العمل الذي ينبغي إنجازه. ليست لديه مواعيد ثابتة للنوم والاستيقاظ. وغالباً ما يسهر الليل كلّه، ثمّ يرقد بكامل ثيابه على أريكة عند منتصف النهار وينام حتى العشاء، دون أن تزعجه جلبة الدنيا بأكملها". وكانت المآسي المنزلية المنتظمة تقطع هذا الوجود الفوضوي كلّ فترة. فالابن الأصغر لآل ماركس، غيدو، مات فجأةً من نوبةِ تشنّجات في تشرين الثاني 1850؛ وماتت ابنتهما البالغة من العمر عاماً واحداً، فرانسيسكا، في عيد الفصح عام 1852 بعد هجمة شديدة من التهاب القصبات. أمّا ابن ماركس الآخر، إدغار الحبيب، فمات بالسلّ في آذار 1855 . ولأنّ الحزن أفقد ماركس صوابه، فقد اندفع إلى الأمام والتابوت يُنْزَل في الأرض يريد أن يلقي بنفسه خلفه. لكن أحدهم أمسك بيده، في الوقت المناسب.

وقد كتب إنجلز في رسالة التعزية بوفاة فرانسيسكا: "فقط لو أنّ هنالك بعض الوسائل التي تمكّنك وأسرتك من الانتقال إلى حيّ صحيّ أكثر وغرفٍ أشدّ اتّساعاً". وسواء كان الفقر المدقع هو الذي قتل فرانسيسكا أم لا، من المؤكّد أنّه كان قد سيطر على حياة والديها. فالدائنون الغاضبون - اللحامون، والخبّازون، ورُسُل المحكمة- كانوا لا ينفكّون يقرعون الباب مطالبين بالسداد. وفي شباط 1852، كتب ماركس: "منذ أسبوع وصلت إلى ذلك الحدّ المُفْرِح الذي عجزت عنده عن الخروج بعد أن رهنت معاطفي، ولم

يعد بمقدورنا أن نأكل اللحم نظراً لنفاد رصيدنا". وفي فترةٍ لاحقةٍ من تلك السنة، كشف لإنجلز أنه "خلال الثمانية أو العشر أيام الماضية لم أكن أُطعم الأسرة سوى الخبز والبطاطا، غير أنّه بات من المشكوك فيه اليوم أن أتمكّن من الحصول على أيّ منهما... كيف لي أن أخرج من هذه الورطة الجهنّمية؟" وفي ذلك الوقت كان يأتي ماركس معاش منتظم كمراسل أوروبي لصحيفة **النيويورك ديلي تريبيون**، التي كان يقدّم لها مقالين أسبوعياً مقابل جنيهين استرلينيين لكلٍّ منهما، لكن ذلك لم يكن كافياً حتى بوجود المعونة الإضافية التي كان إنجلز يقدّمها، ولا شكّ أنّه كان سبباً آخر لفشل ماركس في التركيز على رائعته الاقتصادية.

"غير أنّ الأمر يقترب بسرعة من الاكتمال، على الرغم من كلّ ذلك"، بحسب ما كتبه ماركس في حزيران 1851. لكنَّ "وقتاً يجيء يضطر فيه المرء لأن ينقطع فجأةً". وما يبيّنه مثل هذا القول هو نوعٌ من غياب معرفة الذات يقارب الهزل: حيث كان بمقدور ماركس أن ينقطع بسرور عن أصدقائه وجمعيّاته السياسية، لكنه لم تكن لديه القدرة على أن ينصرف عن عمله، خاصةً هذا العمل، تلك الخلاصة الوافية للإحصاء والتاريخ والفلسفة والتي ستفضّ في نهاية المطاف أسرار الرأسمالية المخزية. وكلما كان يبحث ويكتب، كان يبدو العمل أبعد عن الاكتمال. وقد نصحه إنجلز في تشرين الأول 1851، قائلاً: "الشيء الأساسي هو أنّ عليك أن تعاود الظهور

أمام الجمهور مرّة أخرى من خلال كتاب كبير... من الضروري ضرورةً مطلقة أن تخرق تلك الرقية التي أوجدها غيابك المديد عن سوق الكتاب الألماني". لكنّ المشروع وُضِعَ جانباً مرّةً أخرى، وراح ضحية مزيد من "الانقطاعات الدائمة". فبعد الانقلاب الفرنسي في تشرين الأول 1851، كتب ماركس **الثامن عشر من برومير لويس بونابرت**. وتبدّدت السنوات القليلة التالية في عداوات وجدالات عنيفة ضد مهاجرين مثله. فماركس كان يعتبر مثل هذه الأمور تدخّلات سياسية أساسية وليست مجرّد تجليّات للغضب والاستياء، لأنّ المخلّصين الاشتراكيين الكذبة -إنْ لم يُفْضَحوا- أشدّ جذباً للجماهير من الملوك الحقيقيين. وقد أعلن: "إنني مشتبكٌ في صراع حتى الموت مع الليبراليين المخجلين".

وما أعاد ماركس في النهاية إلى دراساته الاقتصادية هو مجيء الزلزال المالي الدولي في خريف العام 1857 بعد أن طال انتظاره. وقد ابتدأت الأزمة بانهيار مصرفيّ في نيويورك، ثم انتشرت عبر النمسا، وألمانيا، وفرنسا، وإنجلترا مثل قيامةٍ مسرعةٍ. وهُرِعَ إنجلز، الذي كان في فترة نقاهةٍ من مرضٍ ألمّ به، عائداً إلى موقعه في مانشستر لكي يشهد المهزلة؛ انخفاض الأسعار، والإفلاسات اليومية، والهلع المُفْرِط. وقد كتب في تقريرٍ له: "المظهر العام للبورصة (بورصة القطن) هنا مُفْرِحٌ حقّاً. وقد أغظْتُ زملائي أشدّ الغيظ بهجومي الجريء المفاجئ وغير المُفَسَّر". وبلغت ماركس،

أيضاً، عدوى الروح الميلودرامية لتلك اللحظة. فطوال شتاء 1857-1858 كان يجلس في مكتبه حتى الرابعة صباحاً كلّ ليلة، يتفحّص أوراقه الاقتصادية "لكي تتضح لي الخطوط العامة قبل الطوفان". والطوفان لم يأتِ قطّ؛ لكنّ ماركس واصل بناء سفينته، مقتنعاً أنّه ستكون ثمة حاجة إليها عاجلاً أم آجلاً. وحين أثبت حسابه البدائي أنه غير كافٍ للصيغ الاقتصادية المعقّدة قام بمراجعةٍ سريعة للجبر، مبرّراً ذلك بأنّه "لمنفعة الجمهور من الأساسيّ بصورةٍ مطلقة أن نبحث الأمر ذلك البحث الشامل".

ولقد بقيت خربشاته الليلية، التي تزيد على 800 صفحة، خفيّةً إلى أن أخرجها **معهد ماركس وإنجلز** في موسكو من المحفوظات عام 1939، ولم تَغْدُ متاحةً على نطاق واسع إلا مع نشر طبعةٍ ألمانية في العام 1953، بعنوان Grundrisse der Kritik der politischen Oekonomie (أسس نقد الاقتصاد السياسي). وعلى الرغم من ضخامة الأسس، إلا أنه يبقى ذلك العمل المُشَظَّى - مثل طبيخ الغجر، كما وصفه ماركس نفسه- أمّا بوصفه حلقةً مفقودة بين مخطوطات باريس عام 1844 والمجلّد الأول من رأس المال (1867) فهو يبيّن استمرارية أفكار ماركس. فثمة مقاطع طويلة حول الاغتراب، والديالكتيك، ومعنى النقود تردد أصداء مقاطع من مخطوطات 1844، لكن الفارق الأبرز يتمثّل في أنه بات الآن يمزج الفلسفة والاقتصاد في حين كان يتعامل معهما من قبل كفرعين

معرفيين منفصلين. (وقد علّق الكاتب الألماني فرديناند لاسال على ذلك قائلاً: إنَّ ماركس كان "مثل هيغل وقد تحوّل إلى اقتصادي، ومثل ريكاردو وقد تحوّل إلى اشتراكي"). وثمّة مواضع أخرى، يبدو فيها تحليل قوة العمل وفضل القيمة أشبه بمسوّدة لما نجده في رأس المال من بَسْطٍ كامل.

وغالباً ما أشار ماركس إلى عمله في هذه الفترة على أنّه "الخراء الاقتصادي"، ولا شكّ أنّ في هذه العبارة الراشحة بالازدراء شيء من الشعور بالإثم. فمنذ العام 1845 زعم ماركس أنَّ بحثه في الاقتصاد السياسي يكاد ينتهي، وظلَّ يكرر هذه الكذبة ويزيّنها على مدى الثلاثة عشر عاماً التالية لدرجة أنّ توقّعات أصدقائه قد ارتفعت إلى ذروة تكاد تكون مستحيلة. فقد حكموا على الأمر من خلال الزمن الذي استغرقه هذا العمل، وتصوّروا أنه لا بدّ أن يكون تلك الشحنة المتفجّرة الضخمة التي ستدكّ في الحال صروح الرأسمالية. أمّا النشرات الإخبارية المنتظمة إلى إنجلز في مانشستر فقد أَبْقَت على أسطورة التقدّم الواسع. ففي كانون الثاني 1858 أعلن ماركس: "لقد أطحت تماماً بنظرية الربح كما قُدِّمَت إلى الآن". غير أنَّ الحقيقة هي أنَّ كلّ ما كان لديه بعد تلك النهارات الطويلة في **المتحف البريطاني** والليالي الأطول وراء مكتبه لم يكن سوى كومة من دفاتر الملاحظات التي يتعذّر نشرها، ممتلئةً بالمذكّرات الموجزة العشوائية.

وفي مطلع العام 1858، عرض فرديناند لاسال أن يرتّب لماركس إبرام عقد مع ناشرٍ يُدّعى دُنكر (كانت زوجته إحدى خليلات لاسال). وأخبر ماركس الناشر بأنَّ "عَرْضَهُ النقدي لمنظومة الاقتصاد البرجوازي" سوف يتوزّع على ستّة كتب، ينبغي أن تصدر على نحوٍ متتالٍ: "1-حول رأس المال (ويحتوي على بضعة فصول تمهيدية). 2- حول ملكيّة الأرض. 3- حول العمل المأجور. 4- حول الدولة. 5- التجارة الدولية. 6- السوق العالمية". كما أخبره بأنّ المجلّد الأول سيكون جاهزاً للطباعة في أيار، ويتلوه المجلد الثاني خلال بضعة أشهر، وهلم جرا. غير أنّ جسد ماركس تمرّد محتجّاً، كما كان يحصل غالباً حين يواجه ماركس مواعيد أخيرة صارمة. فقد أفضى لإنجلز في نيسان 1858، قائلاً: "كنتَ مريضاً جداً هذا الأسبوع لدرجة العجز عن التفكير، أو القراءة، أو الكتابة، أو أيّ شيء في الحقيقة". فنظراً لآلام الكبد التي حلّت به، وجد ماركس أنّه كلما جلس وكتب لساعتين "كان عليّ أن أرقد ليومين".

كانت تلك مرثاة مألوفة. "واحسرتاه، لقد اعتدنا كثيراً على هذه الضروب من تبرير عدم إتمام العمل". هذا ما علّق به إنجلز بعد سنوات كثيرة، وهو يعيد قراءة بعض الرسائل القديمة. وقد اعترف ماركس نفسه قائلاً: "إنّ مرضي ينشأ في العقل على الدوام". غير أنّه كانت هنالك ضروب من الإلهاء المبرّر إلى حدٍّ بعيد؛ فقد أصيبت ابنته إليانور بالسعال الديكي؛ وكانت زوجته

"حطاماً عصبياً"؛ وكان المسترهن والبائع بالتقسيط يصرخان مطالبين بالسداد. ولقد علّق ماركس على ذلك بنوعٍ من الفكاهة المريرة قائلاً: "لا أحسب أنّ أحداً قط قد كتب عن "النقود" وجيوبه خاوية إلى هذا الحدّ". ومع أنّه لم يكتب أي شيء تقريباً خلال الصيف، فقد وعد في نهاية أيلول عام 1858 بأنّ المخطوطة ستكون جاهزةً لإرسالها "خلال أسبوعين"، لكنه اعترف بعد شهر أنّ "الأمر سيستغرق أسابيع قبل أن أتمكّن من إرسالها". لقد تآمرت عليه الدنيا كلّها: حتى الأزمة الاقتصادية العالمية، بإخفاقها السريع، أثارت لديه مزاجاً سيئاً وسبّبت له "ألم أسنان مروِّعاً".

وفي منتصف تشرين الثاني، بعد ستة أشهر من الموعد النهائي الذي سبق تحديده، سأل لاسال بلطفٍ وبالنيابة عن الناشر البرليني ما إذا كان الكتاب على وشك الانتهاء. وردّ ماركس بأنّ المماطلة "ليست سوى محاولة لإعطائه [أي الناشر] أفضل قيمة مقابل ماله". وقد شرح ذلك، قائلاً:

> **بدا الأسلوب في كلِّ ما كتبته مُلَطَّخاً باضطراب الكبد. ولديّ دافعٌ مضاعف لئلا أسمح لهذا العمل بأن يفسد لأسباب طبية:**
>
> **فهو نتاج خمس عشرة سنة من البحث، أي أفضل سنوات عمري.**

وفيه نظرةٌ مهمّة إلى العلاقات الاجتماعية تُعْرَض لأول مرّة على نحوٍ علمي. ولذلك فإنني أدين إلى الحزب بألاّ أشوّه هذا الشيء بذلك النوع من الأسلوب الخشبي الثقيل الناجم عن كبدٍ مضطرب...

سوف أنتهي بعد حوالي أربعة أسابيع من الآن، كوني بدأت للتوّ بالكتابة الفعلية.

ولا بدّ أنّ هذا قد أدهش لاسال، الذي سبق أن أكّد له ماركس في شباط أنّ النصّ في "مراحله النهائية". أمّا إنجلز فقد صُدِم. وبعد أنّ أرسل ماركس الطرد أخيراً إلى برلين في كانون الثاني 1859، قال لإنجلز: "تقع المخطوطة في حوالي اثنتي عشرة ملزمة (192 صفحة) (ثلاثة أجزاء) وعلى الرغم من أنها تحمل عنوان "الرأسمال بوجه عام"، إلاّ أنّ هذه الأجزاء – ولا ترتبك لذلك– لا تحتوي بعد على أيّ شيء في موضوع الرأسمال". فبعد كلّ تلك الجعجعة الطويلة والصاخبة، لم يقدّم سوى مجلد نحيل. ليس نصفه سوى تلخيص لنظريات اقتصاديين آخرين، والمقطع الوحيد الذي يتّسم بأهمية دائمة هو تصدير عن سيرته الذاتية يصف فيه كيف قادته قراءة هيغل والكتابة الصحفية في **الجريدة الرينانية** إلى الاستنتاج أنّ "تشريح المجتمع المدني ينبغي أن نجده في الاقتصاد السياسي".

وحين بدأ يلوح يوم النشر، أبدى ماركس من المغالاة ما يبديه الباعة الجوّالون الذين لا ينفكّون يمتدحون بضائعهم ويرفعون من قيمتها. فقد توقّع للكتاب - الذي دُعِيَ الآن **مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي**- أن يُتَرْجَم في أرجاء العالم المتحضّر ويحظى بالإعجاب. لكن أصدقاءه روّعوا: فالاشتراكي الألماني فلهلم ليبنكخت قال: إنّه لم يسبق لكتاب أن خيّبه بهذا القدر. ولم يَحْظَ الكتاب سوى ببضع مراجعات. واشتكت جيني ماركس قائلةً: "الآمال الخفيّة التي عقدناها طويلاً على كتاب كارل استخفّت بها جميعاً مؤامرة صمت الألمان. لعلّ الجزء الثاني أن يهزّ النؤومين ويخرجهم من سباتهم".

كان من الواجب تسليم الجزء الثاني بعد بضعة أشهر من الأول. وقام ماركس الآن بتعديل الموعد النهائي قليلاً، وفرض "حدّاً أقصى" هو كانون الأول 1859 لإكمال أطروحته في الرأسمال، تلك الأطروحة التي كانت قد حذفت من **مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي** على نحوٍ يتعذّر تفسيره. غير أنّ دفاتر ملحوظات ماركس الاقتصادية ظلّت راقدةً على المكتب لم تُفْتَح طيلة السنة التالية بينما كان صاحبها يخوض صراعاً مع كارل فوغت من جامعة بيرن عبر المقالات الصحفية، ودعاوى التشهير، وكتاب كامل. ولم ينته الأمر إلاّ بعد أن أصدر الملك البروسي الجديد عفواً عن المهاجرين بمناسبة الاحتفال بتتويجه، مما زاد آمال ماركس بإمكانية العودة

إلى وطنه وإطلاق صحيفة على غرار **الجريدة الرينانية الجديدة**. وهذا ما دفعه في ربيع العام 181 إلى القيام برحلةٍ طويلة - وعقيمة- إلى ألمانيا، موّلها لاسال، بغية تأمين التمويل لتلك الصحيفة، تلاها نوعٌ من ردّ الجميل، حين قرّر لاسال أن يأتي إلى لندن لحضور **المعرض الكبير** الثاني عام 1862 . وقد تذمّر ماركس خلال الأسبوع الثالث من تلك المحنة: "لقد ضيّع الرجل وقتي. والأنكى من ذلك أنّ هذا الأبله ارتأى أنه يمكن لي أيضاً أن أقتل الوقت معه، ما دمت غير منهمك في أيّ "عمل" في هذه الفترة، سوى "العمل النظري"!".

تحوّل ازدراء لاسال لـ "النظرية" إلى ذلك المهماز الذي كان ماركس بحاجةٍ إليه لإنهاء العمل الذي كان النزاع مع فوغت قد قطعه على نحوٍ فاجع. ومع قلّة المهمّات الصحفية التي يمكن أن تلهيه، لجأ ماركس مرّة أخرى إلى قاعة المطالعة في **المتحف البريطاني**، يجمع ذخيرة هجومه الأخير على الرأسمالية. وقد ملأت الملاحظات التي أخذها في عاميّ 1862 و1863 أكثر من 1500 صفحة. وقد فسّر ذلك قائلاً: "إنني أوسّع هذا المجلّد، لأنّ أولئك الأوغاد الألمان يقدّرون قيمة الكتاب تبعاً لحجمه". أمّا المشكلات النظرية التي كانت قد أعيته إلى الآن فقد باتت واضحةً ومنعشة (...). لنأخذ مسألة الريوع الزراعية، أو "قضية الريع الجزائية"، كما دعاها ماركس: "لطالما أضمرتُ شكوكاً حيال

صوابية نظرية ريكاردو المطلقة، وقد كشفت على نحوٍ مسهب قرارة هذا الخداع". فديفيد ريكاردو كان قد خلط ببساطة بين القيمة والسعر. وأسعار المنتجات الزراعية كانت أعلى من قيمتها الفعلية (مقاسةً بوقت العمل المتجسّد فيها)، وكان سيّد الأرض يضع الفارق في جيبه على شكل ريعٍ أعلى؛ أما في ظلّ نظام اشتراكيّ فيمكن إعادة توزيع هذه الزيادة لمنفعة العمال. وحتى لو بقي سعر السوق على ما هو عليه، فإنّ قيمة البضائع - أي "طابعها الاجتماعي"- تتغير تماماً.

بَيْد أنّ سرور ماركس بالتقدّم الذي حقّقه فرّخ نوعاً من التفاؤل المفرط. ففي نهاية 1862، كتب مُعْجَبٌ من هانوفر، هو الدكتور لودفيغ كوغلمان، يسأل عن الموعد المتوقّع لصدور تتمة **مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي**. وردّ ماركس قائلاً: "لقد انتهى الجزء الثاني أخيراً، ولم يبقَ سوى نَسْخِهِ على نحوٍ خالٍ من العيوب وصَقْلِهِ النهائي قبل أن يذهب إلى المطبعة". كما كشف لأول مرّة أنه تخلّى عن العنوان الثقيل الذي وضعه أثناء العمل، "**مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي، المجلّد الثاني**". فالكتب الكبيرة تستحق، بنوعٍ من المنطق العكسي، عناوين قصيرة، ولذلك "سوف يظهر تحت عنوان رأس المال".

وحقيقة الأمر أنّ خشبة ماركس الخام كانت بحاجةٍ إلى مزيد من النجارة قبل أن تغدو جاهزةً لـ "الصقل النهائي"؛ وسرعان

ما لاحت ألهية جديدة وأغرته بالخروج من ورشته. فماركس كان قد رفض جميع عروض المشاركة في جماعات سياسية جديدة منذ انهيار **عصبة الشيوعيين** عام 1850، "مقتنعاً قناعة راسخة أن دراساتي النظرية أعظم نفعاً للطبقة العاملة من تطفّلي على جمعيات فات أوانها"، لكن الفضول غلبه في أيلول 1864 حين وصلته دعوة لحضور أوّل اجتماع تعقده **جمعية الشغيلة العالمية**، وهي تحالف أنجلو فرنسي لنقابيين واشتراكيين. ومع أنّ ماركس حضر الاجتماع كمراقب صامت، إلاّ أنّه اختير في النهاية للمجلس العام، وفي عام 1865 أصبح القائد الفعليّ.

كان ذلك التزاماً مبدّداً للوقت. وثمّة رسالة إلى إنجلز في آذار 1865 تصف كيف جرت الأمور خلال أحد الأسابيع: فمساء الثلاثاء كان مخصّصاً لـ **المجلس العام**، الذي تواصلت مشاحناته إلى ما بعد منتصف الليل؛ وفي اليوم التالي كان هنالك اجتماع عام في **كوفنت** غاردن إحياءً لذكرى العصيان المسلّح في بولندا؛ والسبت والإثنين كانا مكرّسين لاجتماعين عقدتهما اللجنة بشأن "المسألة الفرنسية"، استمرّ كلٌّ منهما حتى الواحدة صباحاً؛ وكذا الحال بالنسبة للثلاثاء، مع مباراة أخرى طويلة بالألفاظ النابية بين أعضاء **المجلس العام** الإنجليز والفرنسيين. وبين هذه المشاغل جميعاً، كان ثمّة "أُناس يندفعون على هذا النحو أو

ذاك لرؤيتي" بشأن مؤتمرٍ حول التصويت الذي سيجري في نهاية الأسبوع القادم. واشتكى ماركس: "يا لها من مضيعة للوقت!". وهذا ما كان يعتقده إنجلز أيضاً. فلماذا يرغب صديقه في أن يقضي ساعات يوقّع بطاقات العضوية ويساجل أعضاء اللجنة النكدين في حين يمكنه أن يكون وراء مكتبه يكتب رأس المال؟ وقد حذّر بعد نوبةٍ أخرى من الشجار الداخلي بين الفرنسيين: "لطالما اعتقدتُ أنّ **الإخاء** الساذج في **الجمعية العالمية** لن يدوم طويلاً. ولسوف يمرّ في كثيرٍ من هذه الأطوار ويأخذ قَدْراً كبيراً من وقتك".

وفي صيف العام 1865 كان ماركس يتقيّأ يومياً ("نتيجةً للطقس الحار واليرقان المرتبط به") وكان مصاباً بالدمامل. وعلى حين غرّة تدفّق الضيوف على المنزل - شقيق جيني قادماً من ألمانيا، وصهر ماركس قادماً من جنوب إفريقيا، وابنة أخته قادمة من ماسترخت- وكانوا سبباً لمزيد من الانقطاع المؤسف عن العمل. وكان هنالك أيضاً ذلك الطابور المألوف من الدائنين الذين "يقرعون على بابي، وينفد صبرهم يوماً بعد يوم". غير أنَّ رائعة ماركس كانت توشك على الاكتمال، في قلب هذه الدوّامة. وفي نهاية العام كان **رأس المال** مخطوطةً في 1200 صفحة، فوضى مثقلة بالتشطيب والخربشة التي لا سبيل إلى فكِّ مغاليقها. وفي رأس السنة 1866

جلس ماركس لكي ينجز نسخة نظيفةً خاليةً من العيوب، أو لكي "ينظّف الطفل باللعق واللحس بعد آلام ولادة مديدة". ولم يستغرق ذلك سوى سنة وبضع السنة، حتى اضطراب الكبد والدمامل لم يثنيا ماركس عن عزمه: وقد كتب الصفحات القليلة الأخيرة واقفاً إلى مكتبه لأنَّ طفحاً من البثور في وركيه كان قد جعل الجلوس مؤلماً أشدّ الألم. (وكان الأرسينيك، المسكّن المألوف، "يبلّد عقلي كثيراً وكنتُ بحاجةٍ لأن أحافظ على فطنتي وحصافتي"). وسرعان ما وقعت عينا إنجلز الخبيرتان على مقاطع معينة في النصّ تركت الدمامل آثارها عليها، ووافق ماركس على أنّها يمكن أن تكون قد أضفت على النثر مسحةً حيويةً. "وعلى أيّ حال، آمل أنَّ البرجوازية لن تنسى دماملي إلى الممات. يا لهم من خنازير!".

وما إنْ أكمل ماركس الصفحة الأخيرة حتى اختفت البثور. وقال له إنجلز: "لطالما شعرت بأنَّ الكتاب اللعين، الذي تنجزه منذ وقت طويل جداً، كان في صميم محنتك، وأنّك لن تتخلّص من هذه المحنة، ولن يمكنك أن تتخلّص منها، قبل أن تنزله عن ظهرك". وإذْ شعر ماركس بأنّه بات "سليماً معافى (...)"، انطلق إلى هامبورغ في نيسان 1867 لكي يسلّم المخطوطة ويشرف على طباعتها. حتى الأخبار التي بلغته بأنّ الناشر يتوقّع استلام المجلّدين التاليين قبل نهاية العام لم تستطع أن تكبح بهجته. "آمل وأعتقد واثقاً أنني

سأنجز ذلك في غضون عام". أمّا ردّات فعل أولئك الذين أُتيح لهم أن يلقوا نظرة على أجزاء من العمل فقد شجّعته على أن يأمل لاسمه وشهرته أن يدوّيا في أرجاء أوروبا.